

مدينة قسنطينة من خلال كتابات الجغرافيين والرحالة العرب (ق5-10هـ)

د. عبد القادر بوباية*

مقدمة: إن المدينة بوصفها المركز الذي تدور حوله حركة الإنتاج والتوزيع والتبادل الاقتصادي والثقافي، وباعتبارها ملتقى التيارات الفكرية والسياسية والاجتماعية هي الخلية الحية الأساسية في حضارة كل مجتمع بشري في الماضي والحاضر، كما كانت الأرياف ولا تزال تابعة للمدن التي تخدمها من خلال مدّها بالمنتجات التي تحتاج إليها، وباستهلاك منتجاتها، إضافة إلى تزويدها بالخراج ومختلف أنواع الضرائب، وهي لا تكتسي أهمية ما إلا بوصفها خلفية للمدينة التي تدور في فلكها، وينطبق هذا الوصف بصورة خاصة على المدن في الحضارة الإسلامية.

إن النصوص التي يقدمها لنا الجغرافيون والرحالة العرب تلقي كل الضوء الممكن على المدن المغربية؛ فهي تصور الحركات السياسية، وتنقلات السكان، والإنتاج الزراعي والصناعي والآثار، كما تعكس بعض التيارات الفكرية والأدبية أحيانا. إن مؤلفات الجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين تمدنا بمعلومات غزيرة عن المدن عامة، ومدن المغرب الإسلامي بصفة خاصة، وبالتالي فهي تعتبر مصدرا لا يمكن الاستغناء عنه لكل مهتم بدراسة التاريخ.

وسأعمل من خلال هذه المقالة على إبراد وصف مدينة قسنطينة، وإبراز أهم التطورات التي شهدتها في الفترة الممتدة بين القرنين الخامس والعاشر الهجريين (11-16م)، وذلك بالاعتماد على نصوص مختارة لجغرافيين ورحالة عرب تكلموا عن هذه المدينة التي زاروها بأنفسهم، أو سمعوا عنها من قام بزيارتها مثل التجار والحجاج وغيرهم.

ومن أجل إنجازها اعتمدت على نصوص مقتبسة من البكري والإدريسي ومؤلف "الإستبصار" وياقوت الحموي وابن سعيد المغربي والحسن الوزان، وارتأيت تقديم ترجمة موجزة

* - أستاذ التعليم العالي في تاريخ المغرب الإسلامي - قسم التاريخ وعلم الآثار - جامعة وهران.

لهؤلاء الرحالة والجغرافيين، وذلك من أجل تعريف القراء بهم من جهة، وتحديد العصر الذي عاش فيه هؤلاء، ومن خلال ذلك تحديد الفترة الزمنية المتعلقة بالوصف من جهة أخرى. وتجدر الإشارة هنا إلى ملاحظة هامة تتمثل في اختلاف الروايات بين أصحابها، ولعلّ الأسباب الرئيسة التي تقف وراء ذلك تكمن في اختلاف المصادر المعتمد عليها من طرف كل واحد من المؤلفين السابق ذكرهم، إضافة إلى اختلاف الفترة الزمنية التي كتب كل منهم فيها كتابه، وبالتالي تسجيله لمختلف التغيرات التي تطرأ على المدينة بين الفترات الزمنية التي تفصل بين كل كاتب وآخر.

لقد أورد هؤلاء الكتاب في مؤلفاتهم جملة من المعلومات التي تسلط الضوء على مدينة قسطنطينة خلال الفترة الزمنية التي ألف فيها كل واحد منهم كتابه، ومن خلالها يمكن للدارس أن يأخذ فكرة عن أبرز التطورات الذي شهدتها هذه المدينة خلال الفترة الزمنية الممتدة من القرن الخامس الهجري (11م) إلى القرن العاشر الهجري (16م).

وصف البكري لمدينة قسطنطينة: يعتبر أبو عبيد البكري، وهو عبد الله بن عبد العزيز بن أيوب من أشهر جغرافي القرن الخامس الهجري.

تتلذذ البكري على يد العذري وابن عبد البر، وألف الكثير من الكتب أهمها في الجغرافية كتاب "المسالك والممالك"، وكتاب "معجم ما استعجم"، وقد استقى معلوماته من العلماء المعاصرين له، والتجار الذين زاروا العدو الأندلسية، كما استفاد من الكتاب السابقين له، وكانت وفاته سنة 487هـ / 1094م¹.

يقدم لنا أبو عبيد البكري في كتاب "المسالك والممالك" وصفا دقيقا لمدينة قسطنطينة- التي يسميها قسطنطينة-؛ فيقول في بداية حديثه عنها: "إنها مدينة أولية"²، ولكنه لا يعطينا أية تفاصيل أخرى تثبت ذلك، أي تثبت قدم المدينة، ويشارك في هذه الصفة جلّ الجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين الذين يكتفون عادة بهذه العبارة، ولا يقدمون وصفا دقيقا لما يشاهدون من آثار تدلّ على مخلفات العصور القديمة، وعلى العكس من ذلك؛ فهو يعدنا بمعلومات قيمة تتعلق بالجانب البشري، حيث يقول: إنها "كبيرة آهلة"³، مما يعني أن قسطنطينة في القرن الخامس الهجري كانت من المدن الكبرى في بلاد المغرب.

ينتقل المؤلف بعد ذلك إلى وصف موقع المدينة؛ فيقول: إنها "ذات حصانة ومنعة، ليس يعرف أحصن منها"، ويؤكد ذلك حين يقول: إنها تقع "على ثلاثة أثمار عظام تجري فيها

السفن"⁴، مما يدلّ على أن منطقة قسنطينة كانت غزيرة المياه في القرن 5هـ، ويضيف ليؤكد حصانة ومنعة المدينة أن هذه المجاري المائية "قد أحاطت بها... وتقع هذه الأنهار في خندق بعيد القعر، متناهي البعد"⁵، وهو ما يدلّ على وجود المدينة على ارتفاع كبير يجعلها في منأى عن هجمات الأعداء.

ومن أجل تسهيل عملية التنقل، ابتكر السكان وسائل تمكنهم من الاتصال بكل أجزاء المدينة، وفي هذا يقول البكري: "قد عقد في أسفله-أي الخندق- قنطرة على أربع حنايا، ثم بني عليها قنطرة ثانية، ثم على الثانية قنطرة ثالثة من ثلاث حنايا، ثم بني فوقهن بيت ساوى حافتي الخندق يعبر عليه إلى المدينة... ويسمى هذا البيت العبور لأنه معلق في الهواء"⁶.

يتحدث أبو عبيد البكري أيضا عن التركيبة العرقية لسكان المدينة قائلا: "ويسكن قسنطينة قبائل شتى من أهل ميلة ونفزاوة وقسطيلية، وهي لقبائل كتامة"⁷، وتجدر الملاحظة هنا أنه بجانب الصواب عندما يربط بين نفزاوة، وهم بنو يطوفت بن نفزاو بن لوا الأكبر بن زحيك بن مادغيس الأتر⁸، وكتامة الذين ينسبون إلى أبيهم كتام أو كتم بن برنس⁹، وهو ما يعنى أن القبيلتين تنتسبان إلى جدين مختلفين، والشيء الوحيد الذي يربط بينهما هو الوطن؛ فجمهور كتامة كان مستوطنا بأرياف إقليم قسنطينة وشرق المغرب الأوسط من جبال أوراس جنوبا إلى سيف البحر بين عنابة وبجاية¹⁰، أما قبيلة نفزاوة فكانت تقيم جنوبي شط الجريد وما يتاخمه من إقليم طرابلس شرقا وصحراء عمالة قسنطينة غربا حتى سميت المنطقة ببلاد نفزاوة¹¹.

ويختم البكري الفقرة المخصصة لمدينة قسنطينة بإيراد معلومات تتعلق بالميدان الاقتصادي؛ فيقول: إن "بها أسواق جامعة ومتاجر رابحة"¹²، ويؤكد ذلك أهمية الموقع الجغرافي للمدينة حيث تعتبر نقطة اتصال بين شرق العالم الإسلامي وغربه، كما تربط المناطق الساحلية بالجنوب (الصحراء)، والملاحظ أيضا هو أن سكان قسنطينة يمتنون في أغلبيتهم النشاط التجاري، وذلك في عصر البكري على الأقل.

وصف الإدريسي لمدينة قسنطينة: الإدريسي هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي المعروف بالشريف الإدريسي، ولد بمدينة سبتة سنة 493هـ/1100م، واستقرّ بصقلية بناء على دعوة ملك النورماندين، وفي مدينة بلرم صَنَّف كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" الذي أهداه إلى روجر الثاني سنة 1138م، وكانت وفاة الإدريسي في 1180م¹³.

يبدأ الشريف الإدريسي وصفه لمدينة قسنطينة بالحديث عن النشاط الاقتصادي، حيث يقول: "ومدينة قسنطينة عامرة، وبها أسواق وتجارة، وأهلها مياسير ذوو مال وأحوال واسعة ومعاملات للعرب، وتشارك في الحوث والادخار، والحنطة تقيم بها في مطامرها مائة سنة لا تفسد، والعسل بها كثير، والسمن يتجهز به منها إلى سائر البلاد"¹⁴، وبذلك فهو يؤكد رواج النشاط التجاري بها، والذي سبق أن أكدّه البكري، لكن الشيء الجديد الذي يضيفه الإدريسي هو ازدهار الزراعة، وكأن هذه الحرفة الأخيرة قد استعادت نشاطها من جديد بعد توقف أو ركود اضطراري خلال القرن السابق يمكن تعليقه بالدور الذي قام به الأعراب في هذه المناطق من إفساد وإغارة على الأخضر واليابس.

يضيف الإدريسي، وهو يتحدث عن المجال الزراعي، فيقول: "ولها مزارع الحنطة والشعير ممتدة في جميع جهاتها"¹⁵.

إن اهتمام السكان بالنشاط الزراعي جعلهم ينتجون كميات زائدة عن الحاجة لذلك، وبالإضافة إلى تصدير قسم منه، فإنهم كانوا يقومون بتخزين الباقي من أجل استعماله في أوقات الشدة، وما يدلّ على ذلك ما جاء به الإدريسي حيث يقول: "وفي كل دار منها مطمورتان وثلاث وأربع منقورة في الحجر، ولذلك تبقى بها الحنطة لبرودتها واعتدال هوائها"¹⁶.

إضافة إلى النشاط الاقتصادي، يتكلم الإدريسي عن موقع المدينة، وطبيعة المواد التي اعتمد عليها في البناء؛ فيقول: إن "مدينة قسنطينة قطعة جبل منقطع مربع فيه بعض الاستدارة، لا يتوصل إليها من مكان إلا من جهة باب في غربها ليس بكثير السعة"، ويضيف ما سبق أن أشار إليه غيره من الجغرافيين؛ فيقول: "وهذه المدينة أعني قسنطينة، يحيط بها الوادي من جميع جهاتها كالعقد مستديرا بها، وليس للمدينة من داخلها سور يعلو أكثر من نصف قامة إلا من جهة باب ميلة، وللمدينة بابان: باب ميلة في الغرب، وباب القنطرة في الشرق، وهذه القنطرة من أعجب البناءات لأن علوها يشف مائة ذراع"¹⁷.

وبهذا يؤكد الإدريسي حصانة المدينة الطبيعية، والتي سبق أن أشار إليها البكري، كما سيؤكد عليها بقية الجغرافيين والرحالة العرب.

إن طبيعة موقع المدينة جعل سكانها يعتمدون عليه في إقامة منازلهم، ويؤكد الإدريسي ذلك حين يقول: "وليس في المدينة كلها دار كبيرة ولا صغيرة إلا وعينة بأها حجر واحد،

وكذلك جميع عضادات الأبواب؛ فمنها ما يكون بحجرتين، ومنها ما يكون بأربعة أحجار، وبنائها من التراب، وأرضها كلها حجر صلد¹⁸.

وصف صاحب الاستبصار لمدينة قسنطينة: يعتبر "كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار" من المصادر الجغرافية الهامة، وقد ألفه مغربي مجهول كان ب قيد الحياة في النصف الثاني من القرن السادس الهجري/12م¹⁹.

يؤكد صاحب الاستبصار المعلومات التي أوردها كل من البكري والإدريسي، والمتعلقة بكبر وقدم مدينة قسنطينة، حيث يقول: "وهي مدينة كبيرة عامرة، قديمة أزلية"، ويختلف عنهما في ذكر ما يدلّ على ذلك حيث يقول: إن "فيها آثار كثيرة للأول"²⁰، وهو ما يؤكد أن صاحب كتاب الاستبصار قد زار المدينة، وشاهد ما بقي بها من بناء الأمم السابقة.

يورد المؤلف نفس المعلومات المتعلقة بطبيعة المدينة وموقعها، حيث يقول: "ومدينة قسنطينة حصينة في نهاية المنعة والحصانة، لا يعرف بإفريقية أمنع منها، ليس لها في المنعة نظير غير مدينة رندة بالأندلس؛ فإنها تشبهها في وضعها، والخندق المحيط بها، والخافة المحدقة بها شها كثيرا، ولكن قسنطينة أعظم وأكبر وأعلى، على جبل عظيم من حجر صلد، وقد شقّ الله ذلك الجبل؛ فكان فيه خندق عظيم يدور بالمدينة من ثلاث جوانب، ونهرها الكبير يدخل على ذلك الخندق، ويدور بالمدينة؛ فيسمع لجريانه في ذلك الخندق دوي عظيم هائل، وصوت مفرع لمن يقرب منه، وقد عقد الأولون على هذا الخندق قطرة عظيمة بل هي ثلاث بعضها على بعض، وهي بالجو قربت من أعلى الخندق وعليها الدخول إلى باب المدينة وهي متصلة بالباب"²¹.

لقد كان مؤلف الاستبصار أكثر دقة من البكري في وصف المدينة لأنه على عكس هذا الأخير قد زار المدينة عدّة مرّات، ويؤكد ذلك حين يقول: "وهذه المدينة من عجائب العالم قد دخلتها مرارا، وتأمّلت آثارها، ودخلت مواضع كثيرة فيها آثار للأول فتأملت²²، وبذلك فهو لا يكتفي بتسجيل ما يسمعه من غيره، بل يربط ما يكتب بالمعينة الميدانية المباشرة، والتي تعطي مصداقية أكبر لما يكتبه.

يؤكد صاحب الاستبصار أيضا ما أورده الإدريسي فيما يتعلق بالجانب الزراعي؛ فيقول إنها أي قسنطينة "كثيرة الخصب والزرع، ولها بساتين كثيرة الفواكه"²³، وهو الكلام الذي يؤكد ازدهار النشاط الزراعي بهذه المدينة التي كانت جزءا من بلاد المغرب التي كان الرومان يسمونها "مطمورة روما".

ويختتم المؤلف كلامه عن قسنطينة بمعلومات تتعلق بالجانب المناخي حيث يقول إنها: "كثيرة الرياح لعلوها وارتفاعها"²⁴، وهو الأمر الذي يدلّ على تمكن المؤلف من معلومات جغرافية هامة، ذلك أن الارتفاع عن مستوى سطح البحر من العوامل الهامة المؤثرة في المناخ بحيث أن درجة الحرارة تنخفض كلما زاد الارتفاع، كما يؤثر الارتفاع أيضا في الضغط الجوي، وهو الأمر الذي يسبب تحرك الهواء من مناطق الضغط الجوي المرتفع نحو مناطق الضغط الجوي المنخفض، ويتأكد ذلك بجلاء عندما نعلم أن مدينة قسنطينة ترتفع عن مستوى سطح البحر بـ1500م.

وصف ياقوت الحموي لمدينة قسنطينة: هو ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي الملقب بـ"مذهب الدين" الذي ولد سنة 574هـ/1178م.

أسر في بلده صغيرا، وعاش ببلاد الروم، ثم ابتاعه تاجر ببغداد، وعاش بعد عتقه في سنة 596هـ من نسخ الكتب بالأجرة، ومن أبرز مؤلفاته كتاب "معجم البلدان" الذي فرغ من كتابته سنة 621هـ، وكانت وفاته سنة 626هـ²⁵.

يؤكد ياقوت الحموي في كتابه حصانة مدينة قسنطينة؛ فيقول إنها: "مدينة وقلعة كبيرة جدا، حصينة عالية لا يصلها الطير إلا بجهد"²⁶، وهو وصف يدل فعلا على موقع المدينة الحصين، ثم يحدد المؤلف موقعها الجغرافي فيقول: "وهي من حدود إفريقية مما يلي المغرب"²⁷، كما يؤكد أيضا على طابعها الفلاحي حيث يقول: "وحولها مزارع كثيرة، وإليها ينتهي رحيل عرب إفريقية مغربين في طلب الكلا"²⁸، وثبتت هذه المعلومات استعادة المدينة لنشاطها الزراعي بعد سنوات القحط التي فرضها الأعراب على المناطق المنفصلة عن الدولة الفاطمية بعد انتقال حكامها إلى المشرق.

وينفرد ياقوت الحموي عن الجغرافيين السابق ذكرهم في هذه المقالة بإيراد جملة من المعلومات المتعلقة بأحد أعلام قسنطينة في النصف الأول من القرن السادس الهجري، حيث يقول: "وإليها ينسب علي بن أبي القاسم محمد أبو الحسن التميمي المغربي القسنطيني المتكلم الأشعري، الذي قدم دمشق وسمع بها صحيح البخاري من الفقيه نصر بن إبراهيم المقدسي، وخرج إلى العراق، وقرأ على أبي عبد الله محمد بن عتيق القيرواني، ولقي الأئمة، ثم عاد إلى دمشق، وأكرمه رئيسها أبو داود المضرج بن الصوفي.

ثم يضيف قائلا: "إنَّ له تصنيف في الأصول سمّاه " كتاب تزيه الإله وكشف فضائح المشبه"، وتوفي في مدينة دمشق في الثامن عشر من شهر رمضان سنة 519هـ"²⁹.

وصف ابن سعيد المغربي لمدينة قسنطينة: ولد أبو الحسين علي بن موسى بن سعيد بن عبد الملك بن سعيد المعروف بابن سعيد المغربي في رمضان سنة 610هـ/1210م في قلعة عصب من أعمال غرناطة، اهتمَّ بالجغرافية الوصفية والفلكية، ورافق أباه في رحلته إلى الحج، وزار جلَّ بلاد الشرق، وهناك أكمل كتابا ضخما بعنوان "المغرب في حلى المغرب"، كما وضع كتابين في الجغرافيا: أولهما بعنوان "كتاب البديع"، ولا يزال مخطوطا، والثاني "كتاب الجغرافيا"، وكانت وفاة ابن سعيد المغربي سنة 685هـ³⁰.

ينفرد ابن سعيد المغربي الذي عاش في القرن السابع الهجري بتحديد الموقع الفلكي لمدينة قسنطينة حيث يقول: "وموضع"³¹ قسنطينة في جنوبها حيث الطول ست وعشرون درجة وأربعون دقيقة، والعرض ثلاث وثلاثون درجة واثنان وعشرون دقيقة"³²، كما يصف لنا موقعها الطبيعي؛ فيقول: "ولها نهر ينصب في خندقها العظيم الشرقي، يسمع له دوي هائل دائر من أعلى المدينة في قعر الخندق مثل ذؤابة النجم لبعده المسافة"³³، ومعنى هذا الكلام أن المدينة تقع في أعلى جبل يشرف على خندق يقع في قعره نهر يحدث صوتا مرتفعا، وبسبب شدة ارتفاع المدينة يظهر النهر منها وكأنه ذؤابة أي ذيل نجم، وهو كناية عن الارتفاع الشاهق للمدينة.

يضيف لنا ابن سعيد معلومة تتعلق بالجانب السياسي حين يقول: "وهذه المدينة على آخر سلطنة بجاية"³⁴، ويعني بذلك الانقسام الذي حدث للدولة الحفصية بعدما تمكن أبو زكرياء يحيى بن أبي إسحاق بن إبراهيم من احتلال مدينة بجاية سنة 683هـ/1284م، والاستقلال بمدينتي بونة وقسنطينة وما وراءها من البلاد عن تونس، كما بايعه أهل مدينة الجزائر والزاب، واستمرَّ هذا الانقسام إلى غاية سنة 694هـ/1294م³⁵، وعلى إثره صار المغرب الأوسط مستقلا، ولو لفترة زمنية محدودة.

وصف الحسن الوزان لمدينة قسنطينة: ولد الحسن بن محمد الوزان بغرناطة حوالي سنة 888هـ/1483م، ثم انتقل إلى مدينة فاس أين تتلمذ على أعلام جامع القرويين.

قام الحسن الوزان برحلات عديدة بحكم المهام السياسية التي أسندت إليه من طرف السلطان محمد الوطاسي، إضافة إلى النشاط التجاري لأسرته، وخلال هذه الرحلات سجل جميع مشاهداته.

قام الحسن الوزان بتسع رحلات مرّ خلالها ببلاد المغرب وهو في طريقه إلى المشرق، الأولى سنة 926هـ/1516م، والثانية سنة 926هـ/1520م، وهي السنة التي أسر فيها من طرف القراصنة الإيطاليين الذين قدموه هدية إلى البابا ليون العاشر-أصبح يدعى ليون الإفريقي- الذي استعان به في تأليف الكتب التاريخية والجغرافية واللغوية، ومن أبرز مؤلفاته "كتاب وصف إفريقيا" الذي أتمه عام 933هـ/1526م، وفي سنة 957هـ/1550م عاد إلى تونس التي عاش فيها إلى غاية وفاته³⁶.

مقارنة بالكتاب السابقين، نلاحظ أنّ الحسن الوزان قد خصّص حيزا هاما من كتابه للحديث عن مدينة قسنطينة، وذلك على مدى ست صفحات³⁷.

يبدأ المؤلف كلامه عن المدينة كغيره من الجغرافيين بالتطرق إلى طبيعة موقع المدينة بعد تأكيد قدم بنائها؛ فيقول إنها: "مدينة قديمة بناها الرومان، وهذا شيء لا يمكن إنكاره نظرا لأسوارها العتيقة العالية السميكة المبنية بالحجر المنحوت الأسود"³⁸، إلا أن الملاحظ هو أن المؤلف لا يذكر أن المدينة كانت موجودة قبل الرومان الذين أعادوا بناءها في عهد قسطنطين بعدما هدمت سنة 311م، وتمّ ذلك سنة 325م³⁹.

يحدد المؤلف موقع المدينة؛ فيقول إنها: "واقعة على جبل شاهق، ومحاطة من جهة الجنوب بصخور عالية، يمرّ عند قدميها نهر اسمه سوفعمار، والضفة الأخرى لهذا النهر محاطة أيضا بصخور بحيث أن الشعب السحيق الواقع بين هذين الجرفين يستعمل كخندق للمدينة، بل هو أكثر نفعا لها من الخندق.

وفي الجانب الشمالي للمدينة أسوار في غاية القوة، بالإضافة إلى أنها تقع في أعلى قمة الجبل بحيث أن الصعود إلى قسنطينة لا يمكن إلا من طريقين صغيرين ضيقين: أحدهما من جهة الشرق، والآخر من جهة الغرب"⁴⁰، ويؤكد هذا الكلام ما سبقه إليه بقية الكتاب الذين أجمعوا كلهم على موقع المدينة الحصين.

يولي الحسن الوزان الجانب الاجتماعي والعمراني عناية هامة في كتابه حيث يقول، وهو يتكلم عن عدد سكان قسنطينة في عهده: إنها: "تستطيع نظرا لحجمها أن تضم ثمانية آلاف

كانون" - وهو كناية على عدد الأسر المقيمة بالمدينة-، وهو عدد كبير نسبيا بالنسبة للفترة التي يتحدث عنها المؤلف.

وفي الميدان العمراني والعلمي يذكر الحسن الوزان أن المدينة "متحضرة جدًا، ومليئة بالدور الجميلة والبناءات المحترمة، كالجوامع الكبير والمدرستين والزوايا الثلاث أو الأربع"⁴¹، ويدل هذا الكلام على درجة التطور الذي وصلته مدينة قسنطينة في عصر المؤلف، أي القرن العاشر الهجري (16م) من جهة، وعلى الاهتمام بالعلم من جهة أخرى على اعتبار أن المساجد والمدارس والزوايا هي المراكز التي كانت تعمل على نشر العلم والمعرفة بين صفوف أبناء المدينة.

ولتفسير ذلك الازدهار لا بد من الرجوع إلى الوضعية الاقتصادية التي كانت تميز المدينة في هذه الفترة، وفي ذلك يقول المؤلف، وهو يتحدث عن الجانب الاقتصادي: "وأسواق المدينة عديدة، حسنة التنسيق، بحيث أن جميع الحرف فيها مفصول عن بعضها البعض... وفيها عدد كبير من التجار الذين يتعاطون تجارة الأقمشة الصوفية المصنوعة محليا، وبعضهم يرسلون الزيت والحرير إلى نوميديا، وكذلك يفعلون بالأقمشة.

كل هذه البضائع تستبدل بالتمر والرقيق، ولا توجد مدينة إفريقية يباع فيها التمر بثمن بخس كقسنطينة إذ يمكن الحصول على ثمانية أرتال أو عشرة من التمر بثلاث بايوتشيات⁴² فقط"⁴³.

لا يقتصر النشاط الاقتصادي على الصناعة والتجارة فقط بل يتعداه إلى الزراعة، وفي ذلك يقول الحسن الوزان: "والأراضي الزراعية المحيطة بالمدينة كلها جيدة خصبة، ويبلغ إنتاجها ثلاثين ضعف ما يزرع فيها، وتوجد أيضا في السهل على طول النهر بساتين في غاية الجمال إلا أنها لا تنتج كثيرا من الثمار لأنهم لا يحسنون خدمتها"⁴⁴.

نلاحظ من خلال ما سبق التطور الاقتصادي الذي عرفته المدينة خلال القرن العاشر الهجري، أما مسألة قلة إنتاج البساتين، وتعليل المؤلف له فيمكن رده إلى سبب آخر يتمثل في انعدام الأمن خارج المدينة، وهو ما يؤكد مؤلف كتاب "وصف إفريقيا" عند حديثه عن التجارة حيث يقول: إن أهل قسنطينة يجتمعون "مرة في السنة في قافلة تذهب إلى نوميديا، يحملون إليها أقمشة الصوف المنسوجة في بلادهم... ويصحبون معهم بعض الأتراك من حاملي

البنادق توقعا للأعراب الذين كثيرا ما يهاجموهم، ويستأجروهم- أي الأتراك- بأعلى الأثمان⁴⁵.

هذه هي الملامح البارزة التي رسمها الجغرافيون والرحالة العرب لمدينة قسنطينة انطلاقا من القرن الخامس الهجري وإلى غاية القرن العاشر منه، وهي ملامح تقدم لنا وصفا دقيقا لموقع المدينة المتميز بالحصانة والمنعة، كما تعكس الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعلمية التي مرت بها هذه المدينة التي تعتبر نموذجا لواحدة من مدن المغرب الأوسط خلال هذه الفترة.

الهوامش:

- 1- إسماعيل العربي- المدن المغربية- المؤسسة الوطنية للكتاب-الجزائر-1984م-ص39-40.
- 2- أبو عبيد البكري- كتاب المسالك والممالك- تحقيق أدريان فان ليوفن وأندي فيري- الدار العربية للكتاب-بيت الحكمة- قرطاج (تونس)-1992م- ج2 ص 728.
- 3- نفسه - ص 728.
- 4- نفسه - ص 728.
- 5- نفسه - ص 728.
- 6- نفسه - ص 728-729.
- 7- نفسه - ص 63.
- 8- مجهول- مفاخر البربر- دراسة وتحقيق عبد القادر بويابة- دار أبي رقراق- الرباط-2005م- ص 154/ابن خلدون عبد الرحمن- العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر- نشر أبو صهيب الكرمي- بيت الأفكار الدولية-الأردن-د.ت-ص1610/عبد الوهاب بن منصور- قبائل المغرب- المطبعة الملكية- الرباط 1388هـ/1968م- ج1 ص306.
- 9- مجهول- مفاخر البربر- ص 143/ابن خلدون- العبر- ص 1627.
- 10- نفسه - ص 1627/ابن منصور- قبائل المغرب- ج1 ص 318.
- 11- العبر- ص 1610/قبائل المغرب - ج1 ص306.
- 12- أبو عبيد البكري- نفس المصدر - ج2 ص 729.
- 13- إسماعيل العربي- نفس المرجع - ص 42-43.
- 14- الشريف الإدريسي- القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس- تحقيق إسماعيل العربي- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر-1983م- ص166.
- 15- نفسه- ص 167.
- 16- نفسه- ص 167.
- 17- نفسه- ص 166.
- 18- نفسه- ص 167.
- 19- محمد المنوي- المصادر العربية لتاريخ المغرب- منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية- الرباط-1404هـ/1983م- ج1 ص44.
- 20- مجهول- كتاب الإستبصار في عجائب الأمصار- تحقيق سعد زغلول عبد الحميد- دار النشر المغربية- الدار البيضاء-1985م- ص165.
- 21- نفسه- ص 165.
- 22- نفسه- ص 166.
- 23- نفسه- ص 166.
- 24- نفسه- ص 166.
- 25- إسماعيل العربي- نفس المرجع- ص 45-46.

- 26- ياقوت الحموي- معجم البلدان- دار بيروت للطباعة والنشر- دار صادر للطباعة والنشر- بيروت- 1404هـ/1984م- المجلد الرابع- ص349.
- 27- نفسه- المجلد الرابع- ص349.
- 28- نفسه- المجلد الرابع- ص349.
- 29- نفسه- المجلد الرابع- ص349.
- 30- إسماعيل العربي- نفس المرجع- صص51-53.
- 31- في الأصل موضوع.
- 32- ابن سعيد المغربي- كتاب الجغرافيا- تحقيق إسماعيل العربي- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- ط2- 1982م- ص142.
- 33- نفسه- ص142.
- 34- نفسه- ص142.
- 35- عبد الرحمن الجليلي- تاريخ الجزائر العام- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- دار الثقافة- بيروت- 1402هـ/1982م- ج1 ص55.
- 36- خير الدين الزركلي- الأعلام- دار العلم للملايين- بيروت- ط11- 1995م- ج2 صص217-218/مقدمة وكتاب وصف إفريقيا.
- 37- الحسن بن محمد الوزان الفاسي- وصف إفريقيا- ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر- دار الغرب الإسلامي- بيروت- الشركة المغربية للناشرين المتحدين- الرباط- الطبعة الثانية- 1983م- صص55-60.
- 38- نفسه- ص55.
- 39- عبد الرحمن الجليلي- نفس المرجع- ج2 ص72.
- 40- الحسن الوزان- وصف إفريقيا- صص55-56.
- 41- نفسه- ص56.
- 42- بابتوشي: عملة إيطالية قيمتها نحو سبعة سنتيمات ذهب.
- 43- نفسه- ص56.
- 44- نفسه- ص58.
- 45- نفسه- ص59.